تاريخ

## من الحرفة إلى الإطارات المفاهيمية والمعرفية

# العمارة كمهنة

لعصور طويلة، ظلّت العمارة حرفة يدوية لا تتطلّب تعليماً نظرياً، لكنها ستُصبح، بدءاً من عصر النهضة، مهنةً تخصّصية تحتاج دراسةً مكثّفة، وصار المعماريون يركّزون على التصميم وأدواته، وأصبح لمهنتهم معاييرها الأكاديمية ولوائحها التنظيمية ومراجعها المعرفية

ناصر الرباط

ظهرت العمارة كحرفة في الحضارات القديمة منذ حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد، فبعد نشوء الدول والمدن، سيطر معلّمو البناء الذين تلقّوا تدريباً عملياً وحساسية فنية على إنشاء المعابد والقصور والمدافن العظيمة في وادي النيل وبلاد الرافدين والهلال الخصيب أولاً، ثم اليونان وروما وبيزنطة والهند والصين وبعدها أوروبا الغربية والعالم الإسلامي في العصور الوسطى. ومع ذلك، فليس من الواضح متى وأين ظهر مصطلح معمار أو ما يُعادله للدلالة على مهنة محدّدة للمرة الأولى.

هناك بعض التقارير المتأخّرة التي تفيد بأن أوّل معماري في التاريخ هو إمحوتب، الذي كان مستشاراً في بلاط الفرعون زوسر (حكم من 2630 إلى 2611 ق.م)، وإليه يُنسب الفضل في تصميم هرم سقارة المتدرّج، بالإضافة ربما إلى كونه أول من استخدم الأعمدة الحجرية في البناء. ولكن هذه فرضيات أكثر منها حقائق مؤكّدة؛ لأن ما نعرفه قطعاً عن إمحوتب لا يتجاوز كونه مستشاراً محنكاً لزوسر تم تأليهه بعد موته بمئات السنين ونُسبت إليه الحكمة والمعرفة بالطب وكذلك العمارة. علينا أن ننتظر حتى الفترة الكلاسيكية كي نجد بنّائين ترقّوا في مهنتهم حتى أصبحوا أشبه بمعماريّي اليوم شهرةً وعلماً وثراءً. واحد من أشهر هؤلاء هو أبولودورس الدمشقي، الذي بنى للإمبراطور تراجان (حكم بين 113 و98 بعد الميلاد) بعضاً من أشهر أبنيته قبل أن يقتله الإمبراطور هادريان غيرةً وتشفّياً. لكن المعماري الكلاسيكي الأكثر شهرة هو بالطبع فيتروفيوس Vitruvius (تقريباً 15 - 80 قبل الميلاد) الذي أسّس كتابه عن العمارة «De architectura» المسمّى أيضاً «كتب العمارة العشرة» لتعريف العمارة كمهنة عقلية بالإضافة لكونها حرفة.

أصبح الكتاب ذاته في ما بعد نموذجاً للكتابة عن العمارة بعد أن اكتشفه معماريو عصر النهضة الإنسانيون واتخذوه أساساً لفهم قواعد البناء وعلم الجمال وأسس التناسب المعماري. ولكن العمارة ذاتها ظلّت في المقام الأول مجالاً حرفياً في مختلف ثقافات العصور الوسطى، حتى تلك التي ورثت التراث الكلاسيكي، مثلها مثل حرف يدوية أخرى ذات صلة مباشرة بالحياة اليومية، مثل النسيج وصناعة الفخار. كان هذا هو حال العمارة في الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى، على سبيل المثال، حيث لا يظهر أي أثر للمعماريين (أو البنّائين)، وغيرهم من الفنانين الذين أبدعوا روائع الفن والعمارة الإسلاميين، في كتب التراجم، أرشيف المسلمين الأول، إلا عندما يبرع واحدهم في بعض المجالات الأدبية أو الدينية مثل كتابة الشعر ودراسة الفقه، أو عندما يصاهر واحدهم أميراً أوسلطاناً. في ما عدا ذلك فنحن لا نعرف عن هؤلاء المبدعين سوى أسمائهم التي خلّفوها محفورة على منجزاتهم من عمارة أو فن. علاوة على ذلك، ليس لدينا الكثير مما يشير إلى أن البنّائين المسلمين القروسطيين الذين طوّروا معرفة نظرية مرتبطة بحرفتهم، على الرغم من أنّ بعض المصادر تُخبرنا أن بعض المتفوقين من البنّائين قد علّقوا على بعض أمهات الكتب الهندسية كما فعل محمد ابن عبد الكريم الحارثي (المعروف بالمهندس والمتوفّى سنة 1204) الذي عمل على البيمارستان النوري في دمشق وكتب على ما يبدو تعليقاً مطوّلاً (هو مفقود اليوم) على كتاب إقليدس المشهور «العناصر»، ليستفيد منه غيره من البنّائين والنجارين. وهناك أيضاً نوع من الكتابة ابتدعه بعض علماء الرياضيات الذين حاولوا تأليف كتب في الهندسة المبسّطة لمساعدة البنّائين والنقّاشين على حساب وإنجاز بعض من التفاصيل المعمارية ذات الهندسة المعقّدة مثل المقرنصات والرقوش النجمية متعددة الأضلاع.

واحد من هذه الكتب وصل إلينا كاملاً وهو «كتاب في ما يحتاج إليه الصانع من الأعمال الهندسية» لأبي الوفا البوزجاني (998 - 940)، ويحتوي على أكثر من مئة شكل هندسي جرى شرح كيفية رسمها بأبسط الطرق وبدون أي معادلات معقّدة. هذا هو الكتاب الوحيد من هذا النوع الذي وصل إلينا بنسخة واحدة في المكتبة الوطنية الفرنسية، ولذلك فمن الصعب جدّاً تقييم تأثيره أو تأثير النوع ككل على حرف البناء في العالم الإسلامي. أمّا ما عدا ذلك، فتشير جميع الأدلة التاريخية الأخرى إلى أن تدريب البنائين، كما كان الحال في الحرف اليدوية الأخرى، استمر في الاعتماد على التتلمذ على يد معلّم في الصنعة وملاحظة وتكرار ما يفعله من دون أي تعليم نظري.

كانت الحال مشابهة في ثقافات الغرب في القرون الوسطى. لكنها تغيّرت بحلول القرن الخامس عشر وقيام عصر النهضة في إيطاليا وانتشاره بعد ذلك في بقية أوروبا الغربية. فقد تحوّلت العمارة إلى مهنة تخصصية تحتاج إلى دراسة مكثّفة للغاية ومتقدّمة فكرياً مع انتشار حمّى عصر النهضة وظهور التقنية الجديدة للطباعة. أصبح عدد من معماريي «الكواتروشنتو» Quattrocento في القرن الخامس عشر الميلادي من أشهر المفكّرين الإنسانيين في عيون معاصريهم لأنهم انغمسوا في اكتشاف القواعد الجمالية الكلاسيكية من خلال تفسير النصوص القديمة وتحليل الآثار الكلاسيكية القائمة في مدن إيطالية مختلفة. وهكذا ظهر المفكّرون المعماريون الأوائل، من أمثال البرتي وبرونولسكي وبالاديو، الذين كتبوا ونشروا أطروحات معمارية شرحوا فيها مبادئ العمارة الكلاسيكية وإعادة استخدامهم لها في أعمالهم وأعمال معاصريهم، مما أضفى عليهم صفة الروّاد في عملية إعادة الإحياء الكلاسيكي التي ميزت عصر النهضة.

هكذا ابتدأت العمارة باكتساب إطارها المفاهيمي والمعرفي الخاص بها ببطء ولكن بحزم. صار المعماريون يركّزون بشكل متزايد على التصميم وأدواته المعرفية والعملية، وأصبح لمهنتهم انضباطها الأكاديمي ومعاييرها ولوائحها التنظيمية ومجموعة من المراجع المعرفية. ولكن هذه الثورة في مكانة المعماري ونطاقه المهني كانت بطيئة الانتشار خارج أوروبا، مركز عصر النهضة. فقد ظلت العمارة في كل مكان آخر تقريباً، بما في ذلك العالم الإسلامي، حرفة. وبقي المعماري حرفياً يعتمد على سنوات طويلة من التتلمذ على معلّمي البناء.

(مؤرّخ ومعماري مقيم في الولايات المتّحدة)

**تحوّلت العمارة إلى مهنة تخصّصية مع بدء عصر النهضة**

**لا نعرف عن جُلّ معماريي الحضارة الإسلامية سوى أسمائهم**

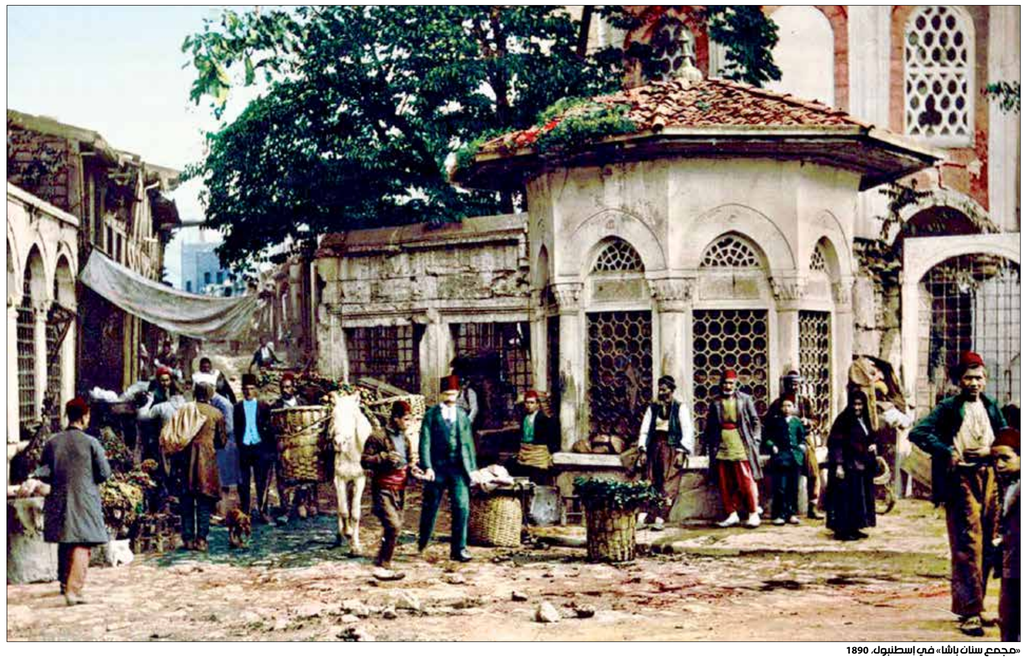
«مجمع سنان باشا» في إسطنبول، 1890

### استثناء سنان باشا

في مقابل الثورة المعمارية في أوروبا، كانت الاستثناءات في العالم الإسلامي قليلة جدّاً، وقد تركّزت في الهند المغولية وتركيا العثمانية التي أنجبت المعماري المعجز سنان (1489 - 1588) الذي بنى مئات المعالم الرئيسية في إسطنبول وغيرها، والتي حدّدت النمط الكلاسيكي العثماني، وهو الوحيد في تاريخ العمارة الإسلامية الذي أملى سيرته الذاتية وشرح فيها وجهات نظره حول العمارة بما يشبه كتابات معاصريه من معماريّي عصر النهضة.

صدر قديماً

## محمد النجّاري باي التعريب مطلع القرن العشرين

# القاضي ومعجمُه

لا يُقرأ هذا التصنيف كمعجم فقط، بل كأثر ثقافي يؤرّخ لطور انتقالي من أطوار اللغة العربية، حين كانت تتلمّس سبل تسمية أشياء العالم ومفاهيمه

نجم الدين خلف الله

كان محمد النجّاري باي (تاريخ الولادة مجهول، تُوفّي سنة 1914)، قاضيًا في المحاكم المختلطة بالإسكندرية، يقضي أوقاته في حلّ النّزاعات وقراءة المُلفّات. ومع ذلك لم ينقطع عن إنجاز مُعجمه «قاموس فرنساوي وعربي»، الذي شرع في جمعه سنة 1880، بعد تخرُّجه من مدرسة الحقوق بالقاهرة والتحاقه بكلية الحقوق بمدينة مونبلييه الفرنسية في السّنة نفسها، حيث مكث «أربع سنين، منقطعًا لدراسة التاريخ والجغرافيا والمعاني في السنة الأولى، والقوانين في السنوات الثلاث التالية»، ثمّ عاد منها في حزيران/ يونيو 1885.

وقتها، قرّر القانوني الشابّ إتمام معجمه بالتزامن مع مهامه القضائية. وهو ما يدفعنا إلى التساؤل عمّا يحمل رجل القضاء، المتضلّع من الفقه الإسلامي والمتمرّس بنصوص التشريعات الأوروبيّة، إلى أن يضع أحد أوائل المعاجم ثنائية اللغة (فرنسية وعربية)، مُتصدّيًا إلى تعريب أكبر المعاجم الفرنسية السائدة في عصره، وهما Le Lettré، الحامل لاسْم مُؤلّفه إميل لتري (1801-1881)، والذي صدرت طبعته الأولى بين 1863 و1872، ومعجم بيار لاروس (1817-1875)، الذي نُشر ما بين 1866 و1877، وكلاهما يشتمل على عشرات الآلاف من المداخل، اجتهد النجّاري في نقلها إلى الضّاد بأمانة وتفانٍ طيلة خمس وعشرين سنة، إذ أصْدر عمَله سنة 1903، في ثلاثة أجزاء.

وقد رتّب قاموسَه هذا على نحو ما تعاقبت المداخل وفْقَ الترتيب الأبجدي الفرنسي وتوارد الكلمات حَسَبَه. فكان يَضع كلّ مفردة فرنسيّة ثم يُثبت ما يقابلها من الكلمات والعبارات العربية مع ذِكْر طبيعتها الصرفيّة وتعالقاتها التركيبيّة وحروف الجرّ التي تناسبها وغير ذلك من العناصر اللغويّة.

والطريف أنّه لم يكن يختار المقابلات العربية من سجلّ الفصيح فحسب، بل كان يَسمح لنفسه باقتراح ترجمات من العاميات الشرقيّة (المصريّة أساسًا والشاميّة)، في مَزْج لطيف بين وجهَيْ الضاد، مؤكّدًا كليّتها وأنّ لا تفكّك بين سجلّيْها وقد تكاملا في نقل لغة فولتير. كما كان يَمزج المُقابِلات مقدّمًا عن كلّ معنىً جدولاً تنتمي وحداته إلى مُستويات متفاوتة في اللغة، كتَرجمة Demoiselle بـ: مَدْالة، كريمة، ناهد ومُغصر... وهو ثراءٌ لافت يظهر فوبرقات المعنى، بحسب السياق الاجتماعيّ وسجلّات الخطاب المتغايرة. كما يضع النجاري جداول نحويّة للضمائر التي يَعرض لها ويفسّر القواعد بإيجاز.

كما أنه وضع اليد، وربما للمرة الأولى، على الكلمات الفرنسية ذوات الأصول العربية والفارسية والعبرية والتركية، وأشار إليها بنجمة، ضمن مُعجَمه، حتى يُذكّر، في تأثيلية غير مؤكّدة أحيانًا، الأصول الأجنبيّة لمئات المفردات الفرنسية. ولم يُغفل النجّاري، بحكم تكوينه القانوني، الإشارة إلى المَضامين القانونية التي تحملها المصطلحات المختصّة، ولكن دون الإفاضة في تفصيل تلك المضامين الفنّية، علمًا أنها تابعة من مَجلّات التشريعات الفرنسيّة، ويَعسر وقتَها إيجاد المقابلات الدقيقة لها.

وعلى غِرار علماء اللغة القُدامى، كان النّجّاري يدلّل على المعاني بإيراد شواهد من القرآن والشعر العربي، الراقي والشعبيّ، كسياق ممكن لتلك المعاني. كما كان يورد بعض القصائد والمقطوعات التمثيليّة التي ترجمها عُثمان جلال (1828-1888)، رائد المسرح المصري، عن أمثولات لافونتين، وذلك بمناسبة وُجود مفردة ما في مطلع أبياته مع ذكر الأمثولة الأصليّة. فعندما يأتي إلى كلمة Phébus مثلاً، ألهة الشمس، يورد قصيدة: اجتمع الشمس والريح معًا...

هذا، ويعود إليه فضل الإسهام في حركة التوليد المعجمي، التي نشطت مطلع القرن العشرين، إذ كان في اتصال وثيق بمثقفي عصره من أصحاب العلوم، يُسجّل عنهم ما اتفقوا عليه من مصطلحات متخصصة. ومن طرائف ذلك نقل مفردة Démographe التي تُرجَمها: «واصف البَشر»، وهو توليدٌ لَم يَصمُد رغم رشاقته، حيث سادَ المُقترَض «ديمغرافي».

وهكذا، لا يُقرأ هذا التصنيف كمعجم فقط، بل كأثر ثقافي يؤرّخ لطور انتقاليّ من أطوار اللغة العربية، حين كانت تبحث عن طريقها وسط غابة الحداثة الكثيفة وتتلمّس سبلاً مُتعرّجة في تسمية أشياء العالم ومفاهيمه. ولعلّ من بين فرضيات البحث البكر، في هذا المعجم، إحصاءُ الكلمات التي بقيت مستخدمةً في أيامنا، وتمييزُها عن تلك التي هَجرها الاستعمال وصارتْ من المُتقادِم المُهمل. وكذلك البحث في المولّدات التي ضمّت شاهدًا على إسهام النجّاري في تطوير الضاد عبر آلية الترجمة.

وفي الحقيقة، لا نعتبر هذا التعريب مسخًا أو طمسًا، بل رافدًا ناعمًا غذّى لغتَنا من الداخل، مع عزوفٍ مبدئي عن الاقتراض الصوتي، مع أنّه من الحلول أسهلها، ولم يكن يَلجأ إليه إلّا في نادر الحالات. وهو ما يشهد أنّ الزّواج بين القضاء والمُعْجَمة كان شرعيًا، أتى من الثمار اللغويّة أعذبها.

**عمل على تعريب أكبر المعاجم الفرنسية السائدة في عصره**

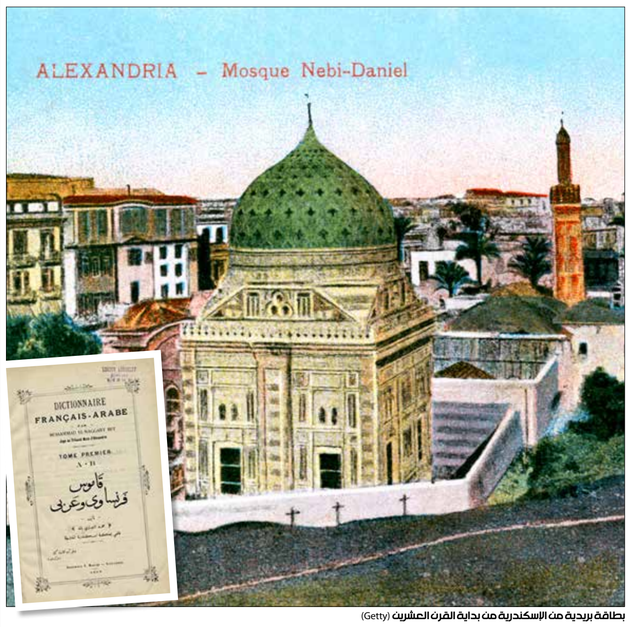

بطاقة بريدية من الإسكندرية من بداية القرن العشرين (Getty)



**النص الكامل**
على الموقع الالكتروني

قصائد

## نقف قرب ما لم يحدث بعد

# كيتيج، كيتيج... هل تسمعين الأجراس في عمق المياه؟

جان باتيست بارا

### فدّيسون ابرياء

تمرّ الفتاة التي ابتسامتها ابتسامة نورس
كان ذلك في البداية:
بقعة ضوء بعيدة
في ثلج الحقول البلدية
فينوس الشمال، والرجال يهربون
أيديهم التي تحت الأوراك القوية
تتناثث قربة الكحول
هل صحيح أن صوتاً
يقع بسرعة سوار رُمي في وعاء؟
كل مرقد يحمل اسم مدينة،
وفي النظرات المضطربة
يمكن قراءة فصل آخر
النمال تتبع النمال نحو جماجم خضّرتها الطحالب
لكن الوقت لا يزال مبكراً
لقياس وزن الظلال.
لم يكن ثمة نجوم في سماء الصباح،
وكنّا نحن ثلج الرُكب النحيفة،
كعقلٍ بكر لوليدٍ جديد.

### أجراس الماء

كيتيج، كيتيج،
حين يتبع الحبّ الحبّ
بمَ تفكّرين؟
بذاك الذي أبحث عن اسمه،
بأول نفخة في ليله،
بلحمه الذي يُسحَب من بطني،
بوجهه المصقول،
بالصورة الأكثر فقراً لحياة.
نقف قرب ما لم يحدث بعد،
وهو أبيض كالأسلحة، كالثلوج،
نرافق خطى طفل لم يولد قطّ.
كيتيج، كيتيج،
حين يتبع الانتظار الانتظار،
بمَ تفكّرين؟
بسواد الذباب،
بطائرات ورقية صنعها
لروحه الصغيرة
أيّ يجيد القصّ،
برموش الطحالب الطويلة
التي تشكّل لحية الغول،
بجاذبية البدايات الخفيفة،
حين يهزّ الطفل أغصان الضوء
ويقلّب جيوبه من ثمار الزان،
بقرعته أيضاً التي تمحي
في ضمّة الوقت المطوي.
كيتيج، كيتيج،
هل تسمعين قرع الأجراس
في عمق المياه؟

### حمّى خفيفة

أن نفقد ما كان يمكن أن يكون:
هذا سيترك أثراً.
كلمة فارغة قرب أغصان مقطوعة
حيث يجفّ الوقت.
في العدم سرعة لا يسعني اللحاق بها أبداً
إنها غرفتنا القريبة من الشارع.
أرغب في رؤية وجهك
لحظة احتراق العالم.
لكن، كل ما هو موجود
يعاني إمكان ترجمته.
من يستطيع فصل الظلال
لتعرف مجدّداً طعم الانتظار؟
بين القرّاص ينام الشعر ويُحفظ
أعلم: لا بدّ من خنق صوتي.

### سمّيتها لغة

دخان الشغف نصب ستارةً معتمة
سمّيتها سماء
عيناي فُركتا على حلم مريع
سمّيته عالماً
أحرقت الريحُ ثوبها لدى احتكاكها بالنار
وسمّيتها عودة الربيع
في السُكر أصبحت هذه الشعلة جرحاً
وسمّيتها خريفاً
قطرة دم تجمّدت في جلطة
وسمّيتها قلباً
موجة مرارة لطختني
وسمّيتها لغة.

(Jean-Baptiste Para شاعر فرنسي
من مواليد باريس عام 1956،
ترجمة عن الفرنسية: زينب عساف)

**النص الكامل**
على الموقع الالكتروني

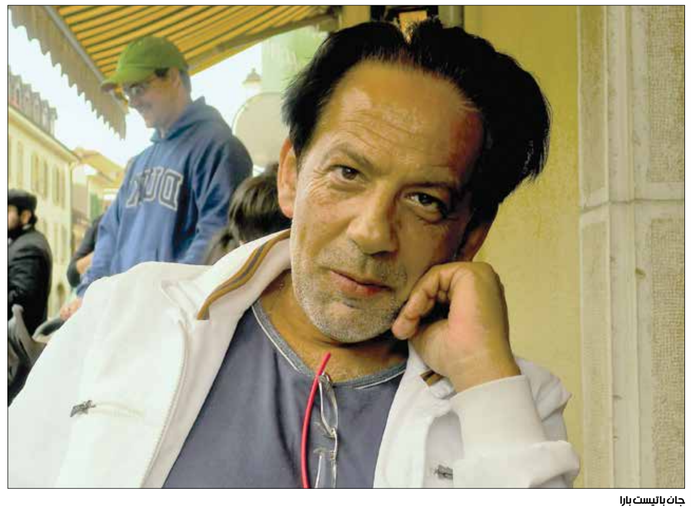
جان باتيست بارا

فعاليات

يُفتتح عند الثانية عشرة من ظهر اليوم الخميس **معرض كتاب جمعيّة الثقافة العربيّة** في مدينة حيفا المحتلّة، بمحاضرة افتتاحية يلقيها الباحث اللغوي الفلسطيني **إلياس عطا الله** حول كتابه الجديد **رشفات من العربيّة: محاضرات في التدقيق والتحرير** عبر البثّ المباشر في صفحة الجمعيّة على فيسبوك.

ينظّم المعرض أيضاً عند السابعة والنصف من مساء غدٍ حلقة نقاشية حول كتاب المفكّر العربي **عزمي بشارة** **صفقة ترامب ـ نتنياهو: الطريق إلى النص، ومنه إلى الإجابة عن سؤال: ما العمل؟** الذي صدر عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، بمشاركة الباحثين أنطوان شلحت ومعين الطاهر وعلي حبيب الله. يتناول بشارة بالتحليل والنقد، ما عُرف إعلاميًا باسم «صفقة القرن».

كما يُعقد عند الخامسة من مساء السبت حوار مع الشاعر والروائي الفلسطيني **محمد الأسعد** حول روايته **أطفال الندى**، يحاوره الصحافي سائد نجم. يتناول الأسعد قصة تهجير أهل قريته أم الزينات سارداً رواية الفلاح الفلسطيني للنكبة والتشريد؛ ويقف على ما أُسقط من الموسوعات وكتابة التاريخ رسمياً.

يُختتم المعرض عند السابعة والنصف من مساء الأحد المقبل بأمسية قراءات نصوص أدبيّة وحوار مع مجموعة من الكتّاب الفلسطينيين الشباب، هم: **أمير حمد**، **ومي كالوتي** (الصورة)، و**محمود ابو عريشة**، و**ميسان حمدان**، و**رافت آمنة جمال**، و**علي قادري**، و**جدل القاسم**، و**تُدير الامسية الشاعرة اسماء عزايزة**.